الاجتماع البشري او العمران

لجناب الدكتور شبلي شميل (تابع لما قبله)

من ينظر في العمران ينبغي ان لا يذهل عمَّا للاقليم من الاثر فيهِ اذ لا يستوي العمران في كل الاصقاع لاختلاف طبائع اقاليمها ولا في كل الاجيال لاختلافهم في الخلق والخلق وسبب ذلك لان الانسان متأثر لعامة الاسباب الطبيعية من حرّ وبرد وهواء وخصب وجدب ونجد وغور وجبل وسهل وبادية ومصر واختلاف فصول وغير ذلك مابين اعتدال مزاج واختلاف تكوين وشدّة واسترخاء وحزم وثبات وطيش وخفة وخشونة ولين ونشاط وتوانٍ وغفلة وذكاء وبلادة وكل ذلك يؤثر في عاداتهِ وسياساتهِ ونحلهِ ويؤثر بعضهُ في بعض ايضًا بحيث تختلف النتائج عن ذلك اختلافًا جسيمًا وتتنوع الى ما لا حدَّ لهُ. فانك اذا قابلت بين سكان صقع وصقع تجد بينهم بونًا عظيمًا في التكوين والاخلاق والسياسات والعادات وكذلك الاجيال الواحدة تختلف في الاحقاب المختلفة وسكان البلد الواحد يختلفون فيما بينهم حتى لا تكاد ترى اثنين يشبه احدهما الآخر بسبب ذلك

وربما امكن الحكم على طبائع كل قوم من طبائع اقليمهم بقطع النظر عن تاريخهم لان متولدات كل اقليم هي شبيهة بهِ لذلك كان اليونان الاقدمون في عصر الميتولوجيا يصلون آلهتهم نار الحرب وكان اكثر شعرهم حماسيًا كما جاء في ديوان شاعرهم اوميروس لان شعر كل قوم مرآة حال ذلك القوم ولذلك ايضًا كان المصريون القدماء يعبدون التمساح وغيرهُ من اصناف الحيوانات العجم. ولهذا السبب عينهِ كان اهل بريطانيا يغلب على طباعهم الجد وعلى تصوُّراتهم العبوسة كما يظهر من تصوُّرات شاعرهم ملتن ولهذا السبب ايضًا كان العرب واهل ايطاليا واسبانيا يصبون الى الالحان الشجية ويميلون الى الغزل والتصابي في شعرهم. وما كان بين ذلك كانت طباع اهلهِ بين ذلك ايضًا ولا يمكن الاطلاق في مقام التقييد لان اسبابًا اخر كثيرة عامة وخاصة اذا اشتركت مع ذلك لم تبق هذه النتائج على حالها بل غيَّرت من امزها وبدلت تبديلاً كبيرًا

وممَّن تمعَّن من الاقدمين بما للطبيعة هذه الاسباب من الاثر في طبيعة الارض وسكانها ابن الطبّ ابقراط قال في عرض كلام لهُ في هذا المعنى ما نصهُ "ان آسيا تختلف اختلافًا عظيمًا عن اوروبا بطبائع محاصيلها وسكانها فكل ما ينبت في آسيا اقوم خلقًا واعدل خُلقًا وسبب ذلك

اعتدال فصولها فانها لوقوعها بين شروق الشمس (الشتوي والصيفي) هي معرضة للحر بعيدة عن البرد وهذا هو سبب خصبها وجودة محاصيلها واعتدال اقليمها . وهي ليست متساوية في كل الاماكن فما كان منها واقعاً متوسطاً بين الحرّ والبرد كانت ثمارهُ اخصب واشجاره اجمل وهواؤهُ ارق ومياههُ مطرًا كانت ام ينابيع اصحّ اذ ليس فيهِ زيادة حرّ تحرقهُ ولا قلة مياه تيبسهُ ولا برد قارس يميتهُ بل هو دائمًا ندي بسبب امطارهِ الغزيرة وثلوجهِ الكثيرة فارضهُ لذلك كثيرة الخصب زرعًا مزروعًا كان ام نباتًا تنبتهُ الارض من نفسها وحيواناتهُ كبيرة كثيرة النتج وسكانهُ سمان واشكالهم جميلة وقاماتهم معتدلة وقلما يختلف احدهم عن الآخر . وهذه القارة ايامها اشبه بالربيع لاعتدال فصولها انما ليس لاهلها بسالة الرجال ولا الصبر على الملمات ولا الثبات في الاعمال ويغلب عليهم حبُّ اللذات ... واما اوروبا فتختلف بعضها عن بعض بالقد والشكل لشدّة اختلافات فصولها وكثرتها . الى ان يقول . لذلك فيما ارى كان اهل اوروبا يختلفون فيما بينهم اكثر من اهل آسيا وكان اهل البلد الواحد يختلفون في القد لان تكوين الجنين يختلف في اقليم تكثر فيهِ اختلافات الفصول اكثر من اقليم تتشابه فصولهُ وكذلك يحصل في الاخلاق لذلك كان اهل اوروبا اشدّ نجدةً للحروب من اهل آسيا" اه

وكذلك تكلّم الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب القانون وقد فحا نحو افراط في ذلك حتى يظن في اماكن كثيرة انهُ نقل عنهُ . قال في ارجوزتهِ متكلمًا عن سبب اختلاف اللون في البشر

بالزنج حرٌّ غيّر الاجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

وممّن افاض في هذا الموضوع ابن خلدون في مقدمتهِ حيث بسط الكلام على تأثير الحرّ والبرد والهواء والقوت والمكان وغيرها بما لا يعهد لهُ مثيل الاّ عند علماء طبائع الحيوان اليوم. قال من كلام طويل لهُ في ذلك ما نصهُ "وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون فيهِ من الحيوانات وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الصهد لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسودُّ وجوههم لافراط الحرّ — الى ان يقول — وليست هذه الاسماء لهم من قبل انتسابهم الى آدميّ اسود لا حام ولا غيره .. ثم يقول . ونظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما ايضًا البياض عن مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذا الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرئيّ العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف

الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها وتنتهي الى الزعورة . ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العين وبرش الجلد وصهوبة الشعر" وهذا التعليل ربما لا يوافقه فيه كثير من العلماء اليوم لانه لم يتحقق لهم اثر الحرّ والبرد في توليد اللون . فقد ذكر كنوك نقلاً عن سيث ان الهولانديين الذين قطنوا افريقيا الجنوبية لم يتغير لونهم في مدّة ثلاثة قرون وذهب دي كاترفاج الى ان طوائف النور واليهود لم يتغيروا مع انهم منتشرون في عامة الاقاليم من عهدٍ طويل . والصحيح انهم لم يتغيروا تغيرًا مهمًّا الاّ ان هذه الادلة لا تفيد شيئًا عظيمًا ضد هذا الاثر لقصر الاحقاب المذكورة بالنسبة الى الاعصار المتطاولة التي توالت على الانسان وبالنظر لما للانسان من الاقتدار على تغيير الاحوال الطبيعية وتحويل اثرها فيه لما يناسبه. وربما كان هناك اسباب أخرى ايضًا كالانتخاب الطبيعي والجنسي كما يذهب داروِن والفوت والامراض وغير ذلك. والحق ان التعليل عن لون البشر لا يزال غامضًا الاّ انهُ لا ينكر ان لضوء الشمس والحرّ كسائر الاسباب الطبيعية ايضًا اثرًا فيه لما يعلم من تأثر المادّة الملونة للجلد (والموجودة في جلد البشر عمومًا) تبعًا لطبيعة الاقليم بحيث يزيد افرازها وينقل بحسب حرّ الاقليم وبردهِ كما يقول المشرح صابي

ثم يصف ابن خلدون تأثير ذلك في الاخلاق فيقول "ومن خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح تأثير الاقليم والحر — الى ان يقول — ونجد يسيرًا من ذلك في اهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لانها عرية في الجنوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك ايضًا في اهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية او قريب منها كيف تغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يدخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة اكلهم من اسواقهم". وربما كان لعدم ادخارهم القوت سبب آخر غير الغفلة التي اشار اليها ابن خلدون فلا يخفى ان ما ينشأ في بلاد باردة من انقطاع المواصلة بين اهلها بسبب البرد والمطر والثلج يولّد في سكانها الحيطة خوفًا من ذلك فيدخرون اقواتهم لسنة بل ولاكثر من سنة بخلاف سكان البلاد التي يندر مطرها وينقل بردها فهم لا يرون لزومًا لان يحتاطوا لامرٍ لا يخشون وقوعهُ

وقد ذكر تأثير الخصب والجدب بما ينطبق على قولنا "وسكان بلادٍ لينة التربة كثيرة السهول والبطاح كثيرة الخصب واسعة الرزق قلما يحتاجون الى جهد البدن والعقل للحصول على الرزق والاثراء فان ارضهم تنبت ما يكفيهم وربما شطت منهم الهمم بقدر سعة العيش مثل بلاد مصر فان نيلها يفيض التبر وارضها تنبت الذهب"

ومن عجيب ما ذهب اليهِ في هذا الباب — ما لو اطلع عليهِ علماء طبائع الحيوان اليوم لاثبتوا لهُ السبق على دارون ولامرك في مذهبها باحتقاب متطاولة وان لم يقصد ذلك نظيرها — هو قولهُ "واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها وحدة مداركها. فالغزال اخو المعز والزرافة اخت البعير والحمار والبقر اخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت. وما ذاك الاَّ لاجل ان الخصب في التاول فعل في ابدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثرهُ والجوع لحيوان القفر حسَّن في خلقها واشكالها ما شاء"

الاَّ انهُ وان كان قد اشبع الكلام في اثر الاسباب الطبيعيَّة انما لم يذكر تأثير الاسباب الادبية كما فعل ابقراط ولا يخفى ما لهذه الاسباب من شديد الاثر في ذلك والحق يقال انهُ يصعب استيفاء الكلام في هذا الموضوع جملةً وميوَّبًا ولو في مجلدات ضخمة لكثرة هذه الاسباب وامتزاجها واختلاف نتائجها بحسب ذلك مما لا يقع تحت ضبط كما اشرنا اليهِ في ما تقدم

فهذه الاسباب الطبيعية والادبية مع ما يعرض لها من الامتزاج والاختلاف انما تؤثر تأثيرًا شديدًا في العمران لشدَّة تأثيرها في الانسان وهذا هو السبب في عدم تساوي البشر في صفاتهم ونظاماتهم وعلومهم وصنائعهم ولغاتهم وسائر ما يتعلق بهم لعدم استواء الاسباب المؤثرة في طبائعهم واخلاقهم انما لم يكن يمتنع اصلاح احوالهم بالاسباب الادبية لما للانسان من الاقتدار بها على التأثير في الاسباب الطبيعية نفسها وجعلها اصلح الاحوال لهُ لان الانسان وان كان منفعلاً لهذه الاسباب بحسب طبيعتها الاَّ انهُ قادر كذلك على تغييرها وتبديلها وانشاء شرها واستدرار خيرها بما لهُ من حدة المدارك وقوة الاستنباط. لذلك كان من الواجب عليهِ ان لا يغفل شأن معدَّات التربية العقلية كالتعليم والنظامات السياسية وسواها لئلاَّ يفقد بفقد الصالح منها عامة فوائد العمران ويسقط في مهاوي التهلكة والخسران

زيت السلاحف

يستخرج هذا الزيت من دهن السلاحف بالغليان ويستعمل بدل زيت السمك في كل الامراض التي يستعمل فيها زيت السمك ويزيد عليهِ نفعًا وليس لهُ طعم كريه مثلهُ على ما قيل